مفهوم القومية العربية والتحرك القومي للمثقفين ١٩٠٨_١٩١٤م

م.م /هدى عبد الجبار طليب الجنابي
وزارة التربية والتعليم

المقدمة :

في البداية لابد من تعريف الوضع الجغرافي للبلاد العربية والوصول الى تحديد دقيق لعبارة الواقع (العالم العربي). لقد توسع مفهوم كلمة "عربي" بالتدريج خلال القرون التي أعقبت ظهور الاسلام ،اما في العصور التي اكتشفت فيها اقدم النقوش فقد كان يقطن في الجزيرة العربية قومان،الأول كانوا من البدو يتنقلون مابين الفرات وقلب الجزيرة حتى الحدود الجنوبية لنجد واالحجاز .والثاني : أكثرهم من الحضر يقيمون في المرتفعات الجنوبية في مناطق هي وجه القرب لليمن وحضرموت . فكانت كلمة عربي بمعناها الانتوغرافي الضيق تطلق على القسم الأول . لكن هذا التعريف لم يعد يستعمل في الوقت الحاضر الافي أصول الأقوام ،فباتت كلمة عربي او عبارة العالم العربي مفهوم أوسع .

وإذا كان المجتمع فاقد لخلفية الحضارية يمتلك ميزة التحرر من ضغوط الماضي وقوالبه الجامدة المستهلكة التي لم يبقى فيها حياة،والتي تهدد بعزلة عن حركة العالم والمستقبل ،او لجم خطوته واندفاعه نحو الامام .

اهمية البحث :

تكمن اهمية البحث بانه يوضح اهمية الوعي العربي وملامح الوعي القومي ودور المثقفين العرب والعراقيين في انبعاث الوعي القومي في الوطن العربي

فرضية البحث:

انطلقت فرضية البحث من كون المجتمع العربي الذي كان مهدا دائما للحضارات لايمكن أن تكون نهضته الحضارية دون وجود هوية أصيلة وحديثة ولاسيما أن حضارته اقترنت في الماضي بالرسالة الإنسانية .

منهجية البحث :

اعتمد البحث على المنهج التاريخي والاحداث التاريخية التي تشير الى البدايات الأولى للملامح الوعي القومي العربي .

هيكلية البحث:

قسم البحث الى ثلاث مباحث فضلا عن المقدمة والخاتمة ،تتطرق المبحث الأول،الى مفهوم الوعي القومي ،واكد على اهمية كلمة عربي والولاء والارض والوطن السمات المشتركة للقومية العربية .اما المبحث الثاني ،فتناول المبحث النواة الاولى للوعي القومي العربي وبوادر ظهورها إبان الاحتلال الحكم العثماني واهم الولاة العثمانيون والمصلحون الذي كان لهم دور في ذلك .اما البحث الثالث ،فتطرق الى دور المثقفين العراقيين في الوعي القومي العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . اما الخاتمة فقد توصل البحث الى اهم الاستنتاجات التي توصل اليها الباحث واهم العوامل التي ساهمت في نشر الوعي القومي العرب

المبحث الأول / مفهوم الوعي العربي :

أقترنت كلمة(وعي)حين اقترانها بكلمة (عربي)كقولنا الوعي العربي ونعني بها مضمون هذه الفكرة ومحتواها أي شعور العرب بشخصيتهم وكيانهم ومعرفتهم لماضي أمتهم معرفة صحيحة ومعرفة العوامل الطبيعية والتاريخية التي أسهمت في تكوين أمتهم .

والكشف عن مصادر قواها الروحية الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها من الأمم أي أن عليهم ان يعرفوا من أين اتو وكيف انحدرت لغتهم ووعيهم ،وبأن لهم شخصيتهم التي يتفردون بها عمن سواهم من الشعوب .

فشخصية تتألف من عناصر مختلفة أهمها اللغة والتاريخ المشترك والثقافة العربية الإسلامية التي انحدرت جميعها من أصول الماضي.

مالقومية تحمل في طياتها معنى الولاء للأرض والعشيرة كما أوردها القاموس العربي . لكن الشعور العربي بارتباطه بأفراد أمته التي ينتمي إليها وولائه للأرض العربية وشعور الشعب العربي وإحساسه بوجوب استقلاله وعندما نذكر القومية فنحن نقصد ((الولاء للأرض)). (احمد.رضا' ٦٨٤)

وقد يكون هذا الولاء إيجابيا وقد يكون سلبيا فالمواطن قد يشعر بالولاء الذي ذكرنها ولا يفعل شيئا لدعوة للقومية العربية او لتحقيق الوحدة العربية . أو انه يشعر بهذا الولاء وثم يقوم بعمل شيئا في هذا الخصوص . (عبد السلام،عماد،١٠٨)

أن كلمة قومية فهي كلمة تعتبر عند العرب (القوم) ونعني بها (الأمة) ولقد فضلنا القول بالقومية كفكرة فلسفية وقد وجدت في منتصف القرن التاسع عشر تفسيران للقومية .

التفسير الأول: يتضمن نظرية القومية الواعية وهي نظرية المفكرين الفرنسيين . (حاطوم، نور الدين،١٩٦٤)

وترجع تلك النظرية ا الى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو ،في كتابه(العقد الاجتماعي) ،ويرى فيه أن أساس المجتمع يقوم على ارتباط المواطنين ، أي انه يقوم

على ارتباط مفهوم ((العقد))ثم توسعت هذه النظرية بأفكار وأراء الى ابعد من ذلك هو احترام الشخص الإنساني واستقلاله وعدم فرض أرادة أجنبية عليه او الاعتداء على حق الآخرين .

ومنها نستنتج بأن ارتباط الأفراد في المجتمع من المجتمعات يخلق في ما بينهم روحا عامة مشتركة ويجعل منهم امة وان الدولة والتي هي كيان السياسي للأمة وتقوم هذه النظرية على روح الاجتماعية.(حاطوم، نور الدين،١٩٦٤) .

التقسير الثاني :وهي نظرية القومية اللاواعية ، مفادها أن انتماء شعب لقومية معينة يكفي الرجوع الى مشتركات خارجية وملاحظة وجود هذا المشترك عند شعب أخر وعندئذ نستنتج بأن هاذين الشعبيين ينتميان الى قومية واحدة ،وهي اللغة .

وقد اعتمدت النظرية الألمانية على أن اللغة هي الأساس او وحدة اللغة ويرجع أصلها الى الفيلسوف هردر ، واعتبر اللغة خير معبر عن فكره ومزاجه و إحساسه وأصالته. وهذا يعني أن القومية كائن عضوي ظاهرته الأساسية اللغة البدائية لشعب. . (حاطوم، نور الدين،ص٦).

ومما لاشك فيه أن مفهوم النظرية الفرنسية و مفهوم النظرية الألمانية قد تتطورا مع الزمن خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ،لكن أساسهما ظلا باقيين ، ومازالت الحركات القومية في القرن العشرين مطبوعة بطابع هاتين النظريتين ،من حيث الارتباط الحر والإرادة المشتركة واللغة .(حاطوم،المصدر نفسه ،ص٧)

إما مصطلح القومية العربية فنعني بها :شعور العرب وإيمانهم بأنهم امة واحدة ذات حضارة عريقة وشخصية خاصة تنفرد بها عما من سواهم من الأمم.

وان لها الحق بإنشاء دولة على أساس قومي ولها كيان مستقل أن الوعي القومي العربي قديم جدا وجد بوجود العرب أنفسهم.

فالقومية العربية قديمة ولم تكن وليدة اليوم او القرن التاسع عشر وشعوره بالقومية شعور بقدم الحضارات تضرب جذوره في أعماق التأريخ العربي ونشأت بذوره الأولى بنشا ذات العربية ثم تطورت عبر مسيرة التاريخ العربي مسايرة لتطور تلك الذات .

وتعرض الوعي القومي العربي الى انتكاسات و انتعاش في النفوس وأخرى ينهض ويتجدد. وقد وجدت بذوره الأولى عند العرب في التاريخ متمثلة الى بالنسب الواحد والأرض المشتركة واللغة المشتركة فضلا عن العادات والتقاليد الاجتماعية ووحدة الطقوس الدينية وحق في لحظات التنافس والتناحر القبلي .

إذ كان العرب قبل الإسلام ينسون أحقادهم القبلية والخصومات حين يداهمهم خطر خارجي .

كما حدث عندما أغار الأحباش على عرب الجنوب او على مكة المكرمة ،فكان التهديد الخارجي المشترك عاملا مهما في وحدة القبائل العربية .(النعيمي ،احمد،قبيلة شمر قبل الإسلام،ص١٨٩).

لكنها لم تكن تعي سياسيا لأنها افتقرت الى من يوظفها سياسيا في لم الشمل ذلك الكيان المشتت فضلا عن عوامل بيئية واجتماعية قاسية التي واجهت ذلك الطموح القومي وحددت فعاليته في ذاتية أفراده (المصر نفسه،ص٢٠١)

والعرب لم يفقدوا كل الشعور بالرابطة القومية بالرغم من انهم عاشو مئات السنين مجزأين سياسيا الى ولايات متناحرة فقد ظلوا يشعرون ويعرفون وأنهم ما زالوا يتكلموا ا لغة واحدة ولايزال في مجتمعهم نفس العادات والتقاليد المشتركة .

اخذ الوعي القومي في التدهور والانحلال عندما بدأ الضعف يدب في كيان الامة العربية وبدأ العرب يفقدون استقلالهم في وأخر الخلافة العباسية والاحتلال العثماني لكيان الامة العربية واخذ يعمل على تدمير حضارة العرب وتفكيك أجزاء الأمة الواحدة واستمر قرونا طويلا من الزمن .

المبحث الثاني/النواة الأولى وبوادر ظهور الوعي القومي :

كان الاحتلال العثماني للكيان العربي مرحلة أخرى من مراحل الانحطاط والتدهور بكل مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،وظلت النزعة الدينية مسيطرة طيلة فترة التدهور القومي حتى مطلع القرن التاسع عشر .

وأن الضعف السيطرة العثمانية على الولايات العربية حتى القرن التاسع عشر في مصر و الشام والعراق والحجاز لم يفسح المجال الكافي لظهور لفكرة القومية العربية في ذلك الوقت ،بسبب عدم وجود سلاح في أيادي أبناء الوطن العربي وتركه بيد السلطات الأجنبية وبعض رؤساء العصبيات المحلية التي كانت محدودة العمل .

فضلا عن ذلك لم يكن هناك قيادة وطنية ،بالإضافة الى أن الشعور السائد أنذالك وهو الانتماء الى عالم اكبر من الوطن العربي هو العالم العثماني الإسلامي .(جورج انطونيس ،ص٢٢٨).

وكانت تلك اهم العراقيل التي واجهت الحركة القومية العربية على الرغم من أن جذورها ظلت حية كامنة . وبالرغم من أن أكثر الشعوب العربية كان لايتقبل وجود الحكم العثماني ويرغب بالتخلص منه .و جاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وتحددت العلاقات العثمانية العربية وذلك بفعل عاملين أساسيين ،أولهما في الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر المتمثلة في أحياء الإسلام على بساطته العربية الأولى وتخليصه من الشوائب والبدع المتمثلة في انتشار التصوف ومأادخل عليها من خرافات منذ القرن السادس عشر

وظهرت بوادر النزعة القومية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر مدعومة بعاملين أساسيين الأول هو تكوين القوة العسكرية الوطنية ، وإحياء الثقافة

العربية ومحاولتهم لإنشاء حكم سياسي يقوه العرب فقط .في مصر او الجزيرة العربية وذلك لتخلص من الحكم العثماني .(المعاضيدي واخروون ،ص٢٩).

والعامل الثاني هو اتصال العرب بالأوربيين وتأثرهم بالأفكار الأوربية وخاصة الفرنسيين .(عبد الكريم ،احمد،ص٢٩). والضغط الاوربيى على المشرق العربي خاصة في أواخر القرن الثامن عشر متمثلا بالحملة الفرنسية التي قدها نابليون بونابرت على مصر والشام منخذأ إشكالا عدة ،كالاساليب الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وبالرغم من التأثير الذي حل بالأمة العربية ،ا لاأن ظهور الحركة القومية ظل بطيئا بسبب الضغط الذي تمارسه السلطة العثمانية .ولكن كل هذا لم يمنع من تكوين العديد من الجمعيات السرية والعلنية ،متمثلة بالاتجاهات الأدبية والثقافية ،في اول الامر وتركزت الدعوة لاحياة اللغة العربية وطالبت تلك الاحزاب والجمعيات على احياء الوعي القومي وبعث الروح القومية عند العرب وتطالب بالحقوق القومية العربية .

وأصبحت مصر ملاذا للكثير من المفكرين والسياسيين بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد الثورة الفكرية التي سارت جنبا مع جنب مع الثورة الفكرية في بلاد الشام .(المعاضيدي خاشع،ص٩٣).

وكانت لصحافة دور كبير في هذه الفترة حيث أسهمت بشكل فعال على اطلاع الرأي العام عما يجري في البلاد العربية ، وذلك من خلال العديد من المقالات لمفكرين عرب مثل رافعة رافع الطهطاوي والكواكبي الذين تناول في مقالاتهم كل مايخص لقضياهم القومية مثل التعليم والإصلاحات الاجتماعية وخرجت الصحافة من الإطار المحلي لتتوسع نحو الإطار القومي .

وكان للمجالس الأدبية والثقافية الأثر الكبير في توعية الشعب العربي في جميع القضايا القومية العربية التي كانت تطرح اناذلك في تلك المجالس .مما أدى الى مساعدتهم الى انخراط في التنظيمات والجمعيات التي أخذت تطالب بالحقوق الوطنية القومية للعرب .

ومن ابرز هذه الجمعيات هي الجمعية القحطانية التي تأسست في عام (١٩٠٩م) والتي لها اثر كبير في توعية العرب لأهم القضايا القومية العربية وكانت تطالب بإنشاء دولة عربية لها مقومات عربية ،مع دولة أخرى هي الدولة التركية ،وتكون كلا الدوليتين لها سلطان عثماني .

وكان من ابرز مؤسسي هذه الجمعية هو عزيز على المصري وعبد الحميد الزهراوي وسليم الجزائري وكان معظم أعضاء هذه الجمعية هم من الضباط العرب وكانت هذه الجمعية الأثر الكبر في بث الوعي العربي حيث كانت تنشر مساؤى نظام الدولة العثمانية ومظالمها ،لكن تعرضت للبطش وتنكيل من قبل السلطات العثمانية بعد أن كشف أمرها.(المصدر نفسه)

وفي الحقيقة أن الكثير من الحوادث التاريخية التي حدثت وتأثرت بالفكرة القومية والمبدأ القومي لان هذه الحوادث لاتظهر لنا كأنها مجرد تصادف او محض اتفاق بل

تبدو مسيرة حسب مفاهيم فلسفية كبرى وهذا مايجعلنا أن نقبل بأن الأفكار والعواطف أهميتها في الحوادث التاريخية .

أن الغاية كل حركة تاريخية قومية تجمع الشعوب وتحررها تؤدي الى تأسيس الدولة القومية ،ولكن يجب أن نتصور أن الوصل الى تلك الغاية لايمكن أن يتم في زمن قصير .وذلك وذلك لان فكرة لاتجد حقائق واقعية تطابقها إلا بصورة بطيئة ،وحتى هذا التطابق بين النظرية والحقائق ،يكون مضطربا او مختلفا قليلا ام كثيرا .

وعلى سبيل المثال نذكر مضى على مايقارب نصف قرن بين ظهور النظريات القومية والحقائق التي نجمت عنها .وقد يمر وقت طويل بين اليقظة القومية ونمو الوعي القومي وتحقيق السيادة القومية .(حاطوم نور الدين ،الحركات القومية ،ص١٦).

المبحث الثالث/ دور المثقف العراقي في الوعي القومي منذ عام ١٩٠٨م الى عام ١٩١٤م:

ظهرت بوادر التغير واضحة وجلية في كافة جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،ولاسيما بعد عام ١٨٦٩م، على اثر فتح قناة السويس ،وارتباط العراق بالسوق الرأسمالية .

وبدأ هذه المرحلة مرحلة نشاط اقتصادي تمثلت في زيادة الإنتاج الزراعي من اجل التصدير ،اذ بلغت الصادرات منذ عام ١٩١٢ الى عام ١٩١٣م ، اكثر٩ ،٢ مليون دينار بعد ماكان في عام ١٨٦٤ _ ١٨٧١ تبلغ صادرات العراق ١٥٠,٠٠٠دينار عراقي .(حسن ،محمد سلمان ،التطور الاقتصادي في العراق ،ص٩٤).

فأدت التحولات الزراعية الى زيادة في قيمة الأرض ونشوء فئة من كبار أصحاب أملاك الأرضي في العراق في منتصف القرن التاسع عشر .

الذي أدى بدوره على التحول الملموس في الهيكل الاجتماعي وانعكس على انخفاض مستوى البدو في العراق فبدوا يؤلفون ١٧% من مجموع سكان الشعب العراقي في عام ١٩٠٥م، بعد أن كانت نسبتهم تشكل ٣٥% من سكان العراق قبل هذا التاريخ .(المقطف،مجلة ،ص١٥٠) .

ونتيجة لوجود الجاليات الأوربية بحكم وجود الاستعمار الأوربي ووجود مصالح اقتصادية في ذلك الوقت ،لذا فمن الطبيعي أن تترك تلك الجاليات انطباعات لدى الشعب العراقي وبالخص في الجانب تقليد للمظاهر الأوربية وهذا انتقدته جريدة (الزوراء) ، المواطنين للمظاهر الأوربية.(الزوراء العدد٢٢٢).

كل هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية فكان من الطبيعي أن تنشاء علاقة بين المثقفي العراق وخاصة بغداد ،وأفراد الجالية ،فعلى سبيل المثال كان ساسون حسقيل يزور القنصل الألماني في بغداد .(الحاصد،العدد ٩٠٧).

تركت مجمل هذه التطورات أثارها على الجوانب الثقافية وصار اقبال الناس على التعليم امر ملحوظ ولاسيما في اواخر القرن التاسع عشر حيث بلغت عدد المدارس التي فتحت في العراق عام ١٩٠٥م،ثمان مدارس ابتدائية اربع منها في بغداد واثنين كل

من البصرة والموصل . فضلا عن المدارس التي تأسست منها مدرسة إعدادية في الموصل .

وقد فرض هذا التطور الحاصل في التعليم على وجود للمعلمين لهذه المدارس لهذا تم تأسيس دار معلمين في بغداد والبصرة والموصل في عام ١٩٠٠م.(الهلالي ،عبد الرزاق ،ص٢٢٠) ،

كانت هناك محاولات أصلاح من قبل بعض السلاطين العثمانيين وعدد من رجال الدولة المتنورين وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في العراق، أمثال السلطان نامق بشا ورشيد باشا ،الذي شيد عدد من الأبنية الحديثة في بغداد ، وتحقيق بعض الإصلاحات في العراق .(لونكريك،ص٣٤).

وقد وصف رشيد باشا بأنه من الولاة الذين حكموا بغداد في عام ١٨٥٣م ، بأنه كان مثقفا واسع الاطلاع ويهتم بالكتب فضلا على انه كان يتقن اللغة الفرنسية .(جعفر لخياط،ص٣).

كانت المدارس الحديثة التي ادخلها مدحت باشا من اكثر العوامل التي اثرت في الفئة العراقية المثقفة ،فقد دخل ودرس في هذه المدارس عدد من المثقفين العراقيين أمثال معروف الرصافي في المدرسة الرشيدية في بغداد .حيث كانت بالنسبة له نوع أخر تختلف عن غيرها من المدارس لتي كانت موجودة أن اذاك حتى من حيث الازياء فكانت عبارة عن بدلة افرنجية وطربوش .(مجلة الاسبوع ،ص١٤).

اصبحت باريس مركزأ لاستقطاب المثقفين من كافة انحاء العالم ونموذج لرقي والعمران وكان تاثير واضح على الفئة العراقية المثقفة ،واصبحت فرنسا في نظرهم ي الدولة الاوربية في نشر المدنية والتحضر .بعد اعلان الثور الفرنسية واعلان حقق لانسان .(الزوراء ،ص٢٨).

اسهمت جريدة الزواء في تنمية الوعي السياسي لدى المثقف العراقي ،من خلال ماتنشره من مقالات ومفردات سياسية جديدة مثل الاشتراكية والجمهورية ،فقد تحدثت ، الاوضاع السياسية في فرنسا وما الت اليه الاوضاع وتحول من الامبراطورية الى حكومة مؤقتة ثم نظام جمهوري سميت بجمهورية فرنسا .(المصدر نفسه).

ساهمت مجموعة من العوامل المتفاعلة في مابينها في اثارة الوعي القومي العربي بين مثقفي العراق ابان هذه المرحلة. وهناك العديد من المؤثرات التي اسهمت وغذت وعيها القومي الى الامام .وساهمت الحركة القومية بالشام ومصر والي الفت مراكز استقطاب للنهضة العربية وكانت مصر وبلاد الشام بحكم كونهم مراكز متقدمة في هذا المجال اصبحت مركز استقطاب وجذب للمثقفين العراقيين .

ملخص للبحث الموسوم (مفهوم القومية العربية والتحرك القومي للمثقفين العراقيين ١٩٠٨-١٩١٤) تقدمت به الباحثة للسيدة هدى عبد الجبار الجنابي .